فلسفة المقاومة عند طه عبد الرحمن
وآثارها في مقاومة الاحتلال والاستبداد والعولمة

The philosophy of resistance according to Taha Abdel Rahman
And its effects on resistance to occupation, tyranny and globalization

د. أحمد خميس زكي مرعي (*)

المستخلص

المقاومة حق مشروع للذين ظُلِمُوا وأُخْرِجُوا من ديارهم، واحتُل وطنهم، ويُعد ما قامت به المقاومة الفلسطينية سواء في يوم السابع من أكتوبر من عام ألفين وثلاثة وعشرين أم فيما قبله أو ما بعده، شاهدًا على صمود تلك المقاومة في وجه الاحتلال الإسرائيليّ، ونجاح ذلك الصمود لم يكن من فراغ، أو وليد اللحظة؛ بل كان له أُسسه الفلسفية، الروحية منها والمادية؛ والتي مكنت المقاومة من الصمود.

ولا تقتصر فلسفة المقاومة على مقاومة الاحتلال فقط؛ بل أرى أن لتلك الفلسفة دورًا مهمًا يجب أن تقوم به في مقاومة "الاستبداد" بالطرق السلمية؛ ذلك الاستبداد الذي جعل بعض البلاد الإسلامية ضعيفة وعاجزة عن تقديم يد العون لأشقائهم الفلسطينيين، ولو بإمدادهم بأبسط مقومات الحياة من طعام، وشراب، ومأوى، وعلاج.

ومن أسباب ذلك العجز الإسلاميّ كذلك هو سيطرة الغرب على المجال الاقتصاديّ، والتقنيّ، والمعلوماتيّ عن طريق "العولمة"؛ التي أفسدت كثيرًا من القيم الخُلقية، وأبعدتها عن الحق، والعدل، والخير في هذه المجالات، وهو أمر جعل البلاد الإسلامية تابعة للغرب، في حين أننا نرى حكام العالم الغربيّ يؤيدون الاحتلال الإسرائيليّ فيما يقوم به من إبادة جماعية للشعب الفلسطينيّ.

ولما كان الأمر كذلك فقد حاولت بيان أهم الأسس الفلسفية التي ترتكز عليها فلسفة المقاومة ضد الاحتلال، والاستبداد، والعولمة في الفكر الإسلاميّ المعاصر، ولا سيما عند الفيلسوف والمفكر طه عبد الرحمن.

(*) أستاذ الفلسفة الإسلامية المساعد–قسم الفلسفة بكلية الآداب – جامعة الإسكندرية
Dr. Ahmed Khamis Zaky Marey
Assistant Professor of Islamic Philosophy – Department of Philosophy
Faculty of Arts – Alexandria University
Ahmed.marie@alexu.edu.eg.

الكلمات المفتاحية

(فلسفة- المقاومة- طه عبد الرحمن- الاستبداد- العولمة)

Abstract

Resistance is a legitimate right for those who were oppressed and expelled from their homes and whose homeland was occupied. What the Palestinian resistance did, whether on October ٧or before or after, is considered a testament to the steadfastness of that resistance in the face of the brutal Israeli occupation, and the success of that steadfastness was not in vain, or Born of the moment; Rather, it has its philosophical foundations, both spiritual and material. Which enabled the resistance to withstand.

The philosophy of resistance is not limited to resisting occupation only; Rather, I believe that this philosophy has an important role to play in resisting "tyranny" through peaceful means. That tyranny made the Islamic countries weak and unable to provide assistance to their Palestinian brothers, even by providing them with the most basic necessities of life, such as food, drink, shelter, and treatment.

One of the reasons for this Islamic age is also the West's control over the economic, technical, and information fields through "globalization." Which has destroyed many moral values, and distanced itself from truth, justice, and goodness in these areas, which is something that made the rulers of the Western world support the Israeli occupation in its genocide of the Palestinian people.

Since this is the case, I have tried to explain the most important philosophical foundations on which the philosophy of resistance against occupation, tyranny, and globalization is based in contemporary Islamic thought, especially according to the philosopher and thinker Taha Abdel Rahman.

key words

Philosophy - resistance - Taha Abdel Rahman - tyranny - globalization

تمهيد

المقاومة حق مشروع للذين ظُلِمُوا وأُخْرِجُوا من ديارهم، واحتُل وطنهم، قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ (الحج، آية ٣٩-٤٠)، وقد قدم الفلسطينيون دماءهم وأرواحهم فداء؛ من أجل الدفاع عن وطنهم، ومقاومة ذلك الاحتلال الإسرائيليّ الذي ما فتئ ينكل بهم تقتيلًا، وتشريدًا، وتهجيرًا، وسلبًا للأرض، وللممتلكات، وتدنيسًا للمقدسات، ويُعد ما قامت به المقاومة الفلسطينية، سواء في يوم السابع من أكتوبر من عام ألفين وثلاثة وعشرين أم فيما قبله أو ما بعده، شاهدًا على صمود تلك المقاومة في وجه الاحتلال الإسرائيليّ الغاشم، ونجاح ذلك الصمود لم يكن من فراغ، أو وليد اللحظة؛ بل كان له أُسسه الفلسفية، الروحية منها والمادية؛ التي مكنت المقاومة من الصمود.

ولا تقتصر فلسفة المقاومة على مقاومة الاحتلال فقط؛ بل أرى أن لتلك الفلسفة دورًا مهمًا يجب أن تقوم به في مقاومة "الاستبداد" بالطرق السلمية؛ ذلك الاستبداد الذي جعل بعض البلاد الإسلامية ضعيفة وعاجزة عن تقديم يد العون لأشقائهم الفلسطينيين، ولو بإمدادهم بأبسط مقومات الحياة من طعام، وشراب، ومأوى، وعلاج.

ومن أسباب ذلك العجز الإسلاميّ كذلك هو سيطرة الغرب على المجال الاقتصاديّ، والتقنيّ، والمعلوماتيّ عن طريق "العولمة"؛ التي أفسدت كثيرًا من القيم الخُلقية، وأبعدتها عن الحق، والعدل، والخير في هذه المجالات، وهو أمر جعل البلاد الإسلامية تابعة للغرب، في حين أننا نرى حكام العالم الغربيّ يؤيدون الاحتلال الإسرائيليّ فيما يقوم به من إبادة جماعية للشعب الفلسطينيّ.

ولما كان الأمر كذلك فقد حاولت بيان أهم الأسس الفلسفية التي ترتكز عليها فلسفة المقاومة ضد الاحتلال، والاستبداد، والعولمة في الفكر الإسلاميّ المعاصر، ولا سيما عند الفيلسوف والمفكر طه عبد الرحمن.

وترجع **أهمية الموضوع** – من وجهة نظري– إلى ضرورة تسليط الضوء على الأسس الفلسفية التي ترتكز عليها فلسفة المقاومة ضد الاحتلال، والاستبداد، والعولمة في الفكر الإسلاميّ المعاصر، ولا سيما عند الفيلسوف طه عبد الرحمن، لما في ذلك من أهمية تساعد الإنسان المسلم على فهم واعٍ لما تقوم به المقاومة الفلسطينية من تصدٍ للاحتلال الإسرائيليّ الغاشم، ومحاولة مد يد العون لها.

الدراسات السابقة الدراسات التي تناولت فلسفة المقاومة في الفكر الإسلاميّ قليلة للغاية، ومنها الدراسات القيمة التي ألقاها الكثير من أساتذة الفلسفة في العالم العربيّ والإسلاميّ في مؤتمر الجمعية الفلسفية المصرية السادس عشر بعنوان "ثقافة المقاومة"، وقد قام بنشرها كل من الجمعية الفلسفية المصرية، ومركز دراسات الوحدة العربية عام

٢٠٠٧م، وقد حاول الدكتور حسن حنفي في الفصل الأول منها بيان أسباب السكون الحاليّ في الوطن العربيّ، حكامًا ومحكومين، وهو أمر جعل الوقوف إلى جانب المقاومة الفلسطينية محدودًا داخل الوطن العربيّ، كما تناول مفهوم المقاومة في ثقافتنا الموروثة، وكذلك تناول الدكتور محمد المجتبى عبد العزيز فلسفة المقاومة بين الذاتية والموضوعية، وتناول أيضًا الدكتور أحمد عرفات القاضي فكر المقاومة عند المعتزلة، وغير ذلك من الدراسات القيمة التي ألقيت في هذا المؤتمر.

ولكني لم أجد في تلك الدراسات أو غيرها ما يسلط الضوء على الأسس الفلسفية التي ترتكز عليها فلسفة المقاومة ضد الاحتلال، والاستبداد، والعولمة في الفكر الإسلاميّ المعاصر، وقد وجدت ضالتي في مؤلفات المفكر والفيلسوف طه عبد الرحمن، وهذا ما حاولت إبرازه من خلال هذه الدراسة.

صعوبات البحث من أهم الصعوبات التي واجهت الباحث، هو ندرة المصادر والمراجع التي تتحدث عن الأسس الفلسفية التي تقوم عليها فلسفة المقاومة الفلسطينية ضد الاحتلال الإسرائيليّ؛ إذ إن معظم المصادر التي تناولت المقاومة الفلسطينية كان تركيزها على البعد السياسيّ أو الأيديولوجيّ، وليس الفلسفيّ، ومن أهم الصعوبات كذلك عمق الأفكار التي تناولها الفيلسوف طه عبد الرحمن، والتي يحتاج فهم مراميها إلى جهد كبير، ولاسيما أنه ينشئ مصطلحات فلسفية من إبداعاته، ويستعملها في فلسفته على نحو خاص.

والإشكالية التي انطلقت منها: تتمثل في الكيفية التي عن طريقها تناول الفيلسوف طه عبد الرحمن فلسفة المقاومة، وأثر تلك المقاومة في مواجهة الاحتلال، والاستبداد، والعولمة.

وقد كانت **هناك تساؤلات** كثيرة حاولت الإجابة عنها في أثناء هذا البحث، ومن أهمها:

- ما مفهوم المقاومة عند طه عبد الرحمن؟ وهل هناك فلسفة للمقاومة الإسلامية؟
- ما الأسس الفلسفية التي تقوم عليها فلسفة المقاومة الفلسطينية ضد الاحتلال الإسرائيليّ عند طه عبد الرحمن؟ وهل هي ذات طبيعة روحية؟ أم ذات طبيعة مادية؟
- هل يمكن لفلسفة المقاومة عند طه عبد الرحمن مجابهة الاستبداد؟ وما وسائلها في ذلك؟ وكيف يساعد ذلك المقاومة الفلسطينية؟
- هل يمكن لفلسفة المقاومة عند طه عبد الرحمن دفع الشرور والآفات الخُلقية الناجمة عن العولمة؟ وكيف يساعد ذلك المقاومة الفلسطينية؟
- هل تتفق فلسفة المقاومة لدى طه عبد الرحمن مع مشروعه الفلسفيّ الإصلاحيّ؟ أم لا؟
- هل يمكن القول: إن فلسفة المقاومة لدى طه عبد الرحمن استطاعت الوصول إلى حل للإشكاليات التي فرض الواقع وجودها في البلاد العربية والإسلامية في الوقت

الحاليّ، وكانت سببًا في ضعف الموقف العربيّ والإسلاميّ من مساندة المقاومة الفلسطينية؟ أم لا؟

أما عن **المنهج المستخدم** فقد استخدمت في هذا البحث منهجًا تحليليًا نقديًا.

وقد اشتمل هذا البحث على تمهيد أوضحت فيه أهمية الموضوع، وعرضت فيه جانبًا موجزًا عن الدراسات السابقة، والإشكالية التي انطلقت منها، وأهم التساؤلات، والمنهج المستخدم، **وقد جاءت عناصر هذا البحث كالآتي:**

أولًا- المقاومة لغة واصطلاحًا.

ثانيًا- فلسفة المقاومة والاحتلال عند طه عبد الرحمن.

ثالثًا- فلسفة المقاومة والاستبداد عند طه عبد الرحمن.

رابعًا- فلسفة المقاومة والعولمة عند طه عبد الرحمن.

وقد **اختتمت هذا البحث بأهم النتائج** التي توصلت إليها عن طريق الإجابة عن التساؤلات التي جاءت في مستهل هذا البحث.

أولًا- المقاومة لغة واصطلاحًا

المقاومة لغة تفيد المدافعة والمنازلة، وهي مشتقة من الفعل قاوم من القيام، والقيام نقيض الجلوس يقال: قام يقوم قومًا وقيامًا، وقومة، والقيام يعني النهوض بالأمر، وقاومه فاعله من القيام، ويقال ما زلت أقاوم فلانًا في هذا الأمر؛ أي أنازله (ابن منظور،١٩٨٥ ، مادة قوم).

ويرى طه عبد الرحمن أن مفهوم المقاومة يتضمن أربعة معان أساسية، وهي: (القوم)، و(القيام)، و(القيم)، و(القَومة)؛ **فالقوم** اسم جمع يدل على جماعة من الناس تكون في حركة وعمل دائمين، ترتبط فيما بينها بروابط راسخة ومتجددة تلك الروابط تحفظ كيانها وترفع مكانتها، أما **القيام** فهو النهوض، وكل نهوض هو حركة وعمل، ومعنى ذلك أن الأصل في القيام هو الحركة والعمل، يكون هذا القيام على ضربين: الأول- جهاديّ يقوم على دفع ما يضر هذه الروابط من داخلها أو خارجها، والثاني- اجتهاديّ يقوم على جلب ما ينفع تلك الروابط الموجود بينهم، **والقيم** هي جملة المقاصد التي يسعى القوم إلى تحقيقها متى كان فيها صلاحهم، **والقَوْمَة** هي عمل الجهاد والاجتهاد الذي يقوم به القوم على بكرة أبيهم (عبد الرحمن، ٢٠٠٦، ص ٦٧-٧٠).

ومعنى ذلك أن **المقاومة** ينهض بها قوم مخصوصون يقومون بدفع شر قائم، لهم قيم مثلى يتخذونها وسيلة؛ لتحقيق قَوْمَة مخصوصة تحقق هدفهم المنشود، والقَوْمَة تُعد نهوضًا بالقيم؛ إذ إن المقاوم – بوجه عام- هو الذي يتولى تجديد الوعي بالقيم، والمقاوم الإسلاميّ – بوجه خاص- هو الذي يتولى تجديد الوعي بالقيم الدينية التي يدعو إليها الإسلام، وإذا كان الحال كذلك فإن **المقاومة الإسلامية** تتمثل في قيام طائفة من المسلمين بدفع الشرور التي ابتلي بها الناس في زمن محدد، مجددة الوعي بالقيم الإنسانية التي اكتملت مع الدين الإسلاميّ القيم (عبد الرحمن، ٢٠٠٧، ص ٥١-٥٢).

ويعتقد طه عبد الرحمن أن هذا التعريف يبرز الصلة القوية بين الفعل المقاوم وبين ظهور القيم؛ إذ إن الفعل المقاوم يعد باعثًا للقيم؛ إن ماتت أحياها، وإن عُدمت أوجدها، وإن ضعفت قوَّاها، وإن فسدت أصلحها، كما أن هذا التعريف يجعل من الدين الإسلاميّ دين الاستقامة والقيام على الحق؛ عن طريق التمسك بأفضل القيم الإنسانية التي تبلغ فيه كمالها (عبد الرحمن، ٢٠٠٧، ص ٥٢).

ولما كان مفهوم المقاومة عند طه عبد الرحمن ينصرف إلى إحياء القيم، وتقويتها، والمحافظة عليها، فضلًا عن حث المجتمع على ذات الفعل؛ فإنني أرى أن فلسفة المقاومة عند طه عبد الرحمن هي فلسفة إيجابية تدعو إلى عدم الاستسلام لواقع يفرض على الإنسان؛ بل يسعى إلى تغييره بكل السبل الممكنة؛ لذلك دعا طه عبد الرحمن في فلسفته إلى مقاومة الاحتلال، والاستبداد، والشرور الخُلقية الناجمة عن العولمة.

ثانيًا- فلسفة المقاومة والاحتلال عند طه عبد الرحمن

تتضح فلسفة المقاومة ضد الاحتلال، ولا سيما مقاومة الشعب الفلسطينيّ للاحتلال الإسرائيليّ- من وجهة نظري- من خلال آراء المفكر والفيلسوف الإسلاميّ "طه عبد الرحمن" الذي تناول مسألة مقاومة الاحتلال الإسرائيليّ من منظور فلسفيّ، ذلك المنظور الذي يتأسس على ما اسماه "النظرية الائتمانية"؛ وهي نظرية أخلاقية تقتضي أن الإنسان فطر على الحقائق التي أقرها الدين، حينما شهد وأقر بالربوبية لله رب العالمين وهو في عالم الذر، قال تعالى: ﴿وَاذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ (الأعراف، آية ١٧٢)؛ إذ إن الله تعالى أخذ من الإنسان العهد بأن يتعبد له وحده ولا يشرك في عبادته شيئًا، ويقتضي هذا العهد من الإنسان في تعبده أن يوافق هذا التعبد إرادة المعبود وهو الله عز وجل، وأن يجتهد في أن يأتي بكل الأفعال التي ينال بها مرضاته عز وجل ويترك كل ما لا يرضي الله سبحانه وتعالى، كما أن هذا الإقرار يجعل الإنسان مؤتمنًا على أصل الفطرة التي أقرت بالربوبية، وشهدت بالوحدانية لله تعالى (عبد الرحمن، ٢٠١٢، ص ٥٦).

وتقودنا تلك "النظرية الائتمانية" لدى طه عبد الرحمن إلى أن الإنسان الفلسطينيّ مؤتمن من الله تعالى على حفظ قداسة الأرض التي بارك الله تعالى فيها، كما أنه مؤتمن على حفظ القيم الروحية والأخلاقية المتأصلة في فطرة الإنسان، ويجب على كل فلسطينيّ أداء هذه الأمانة بموجب عبوديته لله رب العالمين.

وقد أوضح طه عبد الرحمن أهم الأسس الفلسفية التي تقوم عليها فلسفة المقاومة ضد الاحتلال الإسرائيليّ في مؤلفين الأول بعنوان " ثغور المرابطة مقاربة ائتمانية لصراعات الأمة الحالية"، والثاني بعنوان "الحداثة والمقاومة"؛ وقد بين من خلالهما أنواع

الأذى والشرور الواقعة على الشعب الفلسطينيّ؛ التي تأتيها إسرائيل، وكيف أن المقاومة الفلسطينية أو "المرابطة المقدسية" كما يطلق عليها تقوم بدفع هذا الأذى.

ومقاومة الاحتلال عند طه عبد الرحمن على ضربين: الأول- يتعلق بالمقاومة الروحية، أما الثاني- فيتعلق بالمقاومة المادية؛ لذلك سوف أتناول فلسفة المقاومة الفلسطينية ضد الاحتلال الإسرائيليّ عند طه عبد الرحمن من خلال الأفكار التالية: الاحتلال الإسرائيليّ هو شر مطلق، ثم الفلسفة التي تقوم عليها المقاومة الروحية للشعب الفلسطينيّ ضد الاحتلال، ثم أتناول الفلسفة التي تقوم عليها المقاومة المادية ضد الاحتلال الإسرائيليّ.

١- <u>الاحتلال الإسرائيليّ هو شر مطلق</u>

الاحتلال الإسرائيليّ هو شر مطلق؛ ذلك لما ينتج عنه من شرور، وقد عدَّدَ طه عبد الرحمن أنواع الشرور التي تقوم بها إسرائيل ضد الشعب الفلسطينيّ، وإذا كانت إسرائيل تقوم بأذية الفلسطينيين باحتلال أرضهم وانتزاع إرثهم الروحيّ والخُلقيّ، فهي كذلك تؤذي المسلمين بتطويع إرادتهم وحملهم على تطبيع علاقتهم بها، وهي أيضًا تؤذي الإنسانية بتدنيس المقدسات وتزييف القيم، وما من شك في أن المقاومة الفلسطينية "الروحية" و"المادية"، هي التي تحمل على عاتقها الآن مهمة مقاومة ذلك الاحتلال ودفع شروره وأذاه، ليس عن الشعب الفلسطينيّ فقط، ولكن عن كل المسلمين، والإنسانية كذلك، بعد أن تخاذل عن القيام بهذه المهمة القريب والبعيد؛ فالإنسان الفلسطينيّ له خصوصية ليست لسواه؛ إذ إن أرضه هي ملتقى العوالم الشهاديّ منها والغيبيّ، وإرثه ملتقى البعدين الزمنيّ والسرمديّ، ويشير طه عبد الرحمن هنا إلى معجزة الإسراء والمعراج؛ التي وصلت الأرض بالسماء (عبد الرحمن، ٢٠١٨، ص ١٣-١٩).

وإيذاء الاحتلال الإسرائيليّ للشعب الفلسطينيّ يتمثل في جانبين، أحدهما- تدنيس الأرض المقدسة التي بارك الله فيها، والثاني- إفساد الفطرة التي أنتجت أرثهم الروحيّ والخُلقيّ، ويذهب طه عبد الرحمن إلى أن تدنيس الأرض المقدسة ينصرف بالضرورة إلى إيذاء للذات الإلهية؛ إذ إن الله تعالى بارك هذه الأرض، وقد تأثر طه عبد الرحمن هنا بقوله تعالى:﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُم عَذَابًا مُهِينًا﴾ (الأحزاب، آية ٥٧)، أما إفساد الفطرة فهو ينصرف إلى إيذاء الإنسان الفلسطينيّ الذي يحمل هذا الإرث الروحيّ والخُلقيّ (عبد الرحمن، ٢٠١٨، ص ٢٠).

ولما كان الحال كذلك فإني أرى أن الشرور الناجمة عن الاحتلال الإسرائيليّ لا ينصرف أذاها إلى الإنسان الفلسطينيّ فقط؛ بل ينصرف كذلك إلى الإنسانية جمعاء، ويتعدى إلى الذات الإلهية؛ مما يجعل الاحتلال الإسرائيليّ شرًا مطلقًا.

أ- تدنيس الأرض المقدسة التي بارك الله فيها

يُعد احتلال الأرض المباركة إيذاءً لله تعالى؛ إذ يرى طه عبد الرحمن أن احتلال الأرض المقدسة هو منازعة للذات الإلهية في صفة من صفاته، وهي صفة "المالك"؛ فالله تعالى هو المالك المطلق الذي يؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء، ولكن الإسرائيليين أرادوا أن يستأثروا بالتملك أسبابًا وآثارًا، واستبد حب التملك بقلوبهم؛ فهم من دونه لا يشعرون بوجودهم، واستخدموا كل الوسائل التي تمكنهم من امتلاك الأرض المقدسة التي بارك الله فيها، واتبعوا في ذلك كل الأساليب التي تمكنهم من هدفهم، لا يبالون إن اعتدوا على حقوق الغير أو هضموها، أو نكثوا عهدًا أو خالفوا وعدًا مستشعرين أنهم يضاهون الله تعالى في التصرف في ملكه كيفما شاء (عبد الرحمن، ٢٠١٨، ص ٢١-٢٢).

وانطلاقًا من هذه العقيدة الباطلة نجدهم يتفننون في إيجاد الوسائل والأساليب التي تمكنهم من تملك الأراضي الفلسطينية بغير حق، ووسائل الاحتلال الإسرائيليّ في الاستيلاء على الأرضي الفلسطينية تتمثل في ثلاث وسائل: الأولى- الاستيلاء بالقوة على الأراضي العامة والخاصة، والثانية- الاستيلاء على ما فوق الأراضي من منازل ومنابع ومآثر، والثالثة- الاستيلاء على ما تحت هذه الأراضي من ثروات (عبد الرحمن، ٢٠١٨، ص ٢٢).

ولا شك عندي في أن ما تقوم به إسرائيل من احتلال للأراضي الفلسطينية؛ التي اختصها الله تعالى بالقداسة؛ بدعوى أنها المالكة لها، هو تدنيس لتلك الأرض المباركة، ويُعد ذلك منازعة للذات الإلهية في صفة من صفاتها؛ إذ إن الله هو المالك الحق يتصرف في ملكه كيفما شاء، وقد شاء الله تعالى أن يكون الفلسطينيون هم المؤتمنين منه سبحانه وتعالى على حفظ قداسة هذه الأرض؛ لذلك أتفق في الرأي مع ما انتهى إليه طه عبد الرحمن من أن الاحتلال الإسرائيليّ يُعد تدنيسًا للأرض المقدسة التي بارك الله فيها.

ب- إفساد الفطرة التي أنتجت الإرث الروحيّ والخُلقيّ لدى الفلسطينيين

وإيذاء الاحتلال الإسرائيليّ للإنسان الفلسطينيّ يتمثل في احتلال أخص ما يميز الإنسان الفلسطينيّ وهو فطرته التي بها يصنع تراثه الأصيل؛ حتى يجعله يقبل بكل مفاسد احتلال أرضه، اغتصابًا، وتهجيرًا، وتشريدًا، وتدميرًا، وتجريفًا، وتقطيعًا. ووسائل الاحتلال الإسرائيليّ لإفساد فطرة الإنسان الفلسطينيّ تتمثل في محاولتهم "**قلب القيم**"، أو "**سلب الفطرة**"؛ حتى يرى الفلسطينيّ الحق الذي معه باطلًا، ويرى الباطل الذي مع إسرائيل حقًا (عبد الرحمن، ٢٠١٨، ص ٢٤).

وقلب القيم يتم إما **بإفساد الذاكرة**؛ عن طريق جعل الفلسطيني يشك في معتقداته، وقيمه أو يتخلى عنها أو ينكرها أو ينساها، أو تفتر همته تجاهها، وإما **بإفساد الثقة بالذات**، حتى يجعل الفلسطينيّ يفقد ثقته بقدرته الذاتية على التغيير أو اليأس من إمكان دفع المظالم المرتكبة في حقه، مستسلمًا لقدره ومصيره، أو يرتاب في جدوى المقاومة بوصفها أسلوبًا لاسترداد حقوقه، وإما **بإفساد التوجه** بجعل الفلسطينيّ يضطرب في اختياراته وأولوياته، فلا يستطيع تحديد مطالبه ومقاصده كأن ينازعه مثلًا: "خيار المفاوضة" و"خيار المقاومة"، وهو أمر يؤدي إلى اختلال علاقة الفلسطينيّ بمستقبله (عبد الرحمن، ٢٠١٨، ص ٢٤-٢٥).

وإذا كان "قلب القيم" له خطورته في إفساد الفطرة؛ فإن "سلب الفطرة" هو نهاية في إفسادها بغرض اجتثاثها أو استئصالها، وسلب الفطرة الذي يقوم به الكيان الإسرائيليّ هو ما يسمى "التطبيع" الذي يجعل وجوده في فلسطين وجودًا مشروعًا وطبيعيًا، ومفهوم "التطبيع" يقوم على افتراض مسبق، أن الارتباط بالكيان الإسرائيليّ كان طبيعيًا من قبل، والآن يتعين رده كما كان، و"التطبيع" مع الكيان الإسرائيليّ يعني تنازل المطبع عن الحق، وعن كل ما هو مقدس؛ بل عن جوهر عقيدته التي تقوم على التضحية بالروح دفاعًا عن الدين، والمقدسات، والوطن، والعِرْض (عبد الرحمن، ٢٠١٨، ص ٢٦-٣٥).

وأرى أن جرائم الاحتلال الإسرائيليّ تتعدى ما أفصح عنه طه عبد الرحمن من خلال مؤلفاته السابق ذكرها، ولا سيما بعد السابع من أكتوبر عام ألفين وثلاثة وعشرين؛ إذ إن الكيان الإسرائيليّ يرتكب جرائم حرب ضد الإنسانية تتمثل فيما يفعله من إبادة جماعية للشعب الفلسطينيّ؛ لذلك يجب مقاومة ذلك الاحتلال بكل الوسائل الممكنة المادية منها والروحية.

٢- الأسس الفلسفية للمقاومة الروحية ضد الاحتلال الإسرائيليّ

يرى طه عبد الرحمن أنه لما كان الاحتلال قد تسبب في تدنيس الأرض المقدسة، وإفساد فطرة الإنسان الفلسطينيّ، كان الواجب على المقاومة التصدي لتدنيس الأرض بإعادة القدسية لها، والتصدي لإفساد فطرة الفلسطينيّ بتجديد أصالة تلك الفطرة، وقد اصطلح طه عبد الرحمن على تسمية تلك المقاومة باسم "المرابطة المقدسية"؛ ذلك لأن المرابطة المقدسية- من وجهة نظره- هي المقاومة التي تلازم ثغور الأرض المقدسة لتتصدى لتدنيسها، وتعيد إليها قداستها، وتلازم ثغور الفطرة الأصيلة؛ التي تمثل كل مجالات التراث، والتي يمكن للعدو أن يهجم منها؛ لتتصدى لتزييفها وتعيد إليها أصالتها (عبد الرحمن،٢٠١٨، ص ٣٧).

ومهمة تجديد كل من: "قداسة الأرض" و"أصالة الفطرة"، هي مهمة روحية في المقام الأول؛ إذ إن حضور كل من معنى القداسة، والأصالة في الوجدان أقوى من حضور المدركات الحسية للعيان، وإذا كان الاحتلال يسئ إلى قداسة الأرض وأصالة الفطرة بشكل حسيّ، فإن إدراك المقاومة تلك الإساءة الحسية مرتبط بإدراكها المعنى الروحيّ، وتستمد المقاومة الفلسطينية هذا الإدراك الروحيّ من مصادر روحية متعددة منها: عظمة الميراث الروحيّ الذي تركه الرسل والأنبياء، والذي يؤكد قداسة تلك الأرض التي تحتوي على "بيت المقدس"، ولا سيما ارتباط تلك القدسية بإسراء الرسول ﷺ إلى المسجد الأقصى، وصلاته فيه، وعروجه منه إلى السماء؛ ليريه الله من آياته الكبرى، وهذه المصادر الروحية تمد روح وجسم المقاوم الفلسطينيّ بطاقات هائلة تجعل لديه قدرة فائقة على الصمود والمقاومة؛ بل إن تلك الروح المقاوِمة تتعدي المقاوم الفلسطينيّ ذاته لتأثر في غيره من المقاومين الآخرين (عبد الرحمن، ٢٠١٨، ص ٣٨-٣٩).

ولما كانت فلسفة مقاومة الاحتلال الإسرائيليّ – عند طه عبد الرحمن – تقوم على التصدي لتدنيس الأرض بإعادة القدسية لها، وكذلك التصدي لإفساد فطرة الإنسان الفلسطينيّ بتجديد أصالة تلك الفطرة، كان من المهم بيان تفصيل ذلك؛ حتى تتضح تلك الفلسفة.

أ- <u>التصدي لتدنيس الأرض بإعادة القدسية لها</u>

يرى طه عبد الرحمن أن المقاوم الفلسطينيّ يمكن له أن يقاوم تدنيس الاحتلال الإسرائيليّ لأرضه الذي يدعي ملكيته المطلقة للأرض؛ عن طريق نزع هذه الصفة عنه، ويتحقق ذلك "بتجريد إسرائيل من صفة المالك"، و"ترسيخ ثقافة الائتمان" (عبد الرحمن، ٢٠١٨، ص ٤٢)، وذلك على النحو الآتي:

١- **<u>تجريد إسرائيل من صفة المالك</u>**؛ وذلك بأن يؤمن المقاوم الفلسطينيّ إيمانًا خالصًا بأن إسرائيل لا يحق لها أن تملك شيئًا حقيقة مهما احتلت من الأراضي؛ إذ إن المالك الحقيقيّ للأراضي المقدسة هو الله سبحانه وتعالى؛ الذي بارك فيها، وجعل إسراء ومعراج الرسول الكريم ﷺ إليها ومنها، وفضل هذا الإيمان أنه يمد المقاوم الفلسطينيّ بالاستعداد الروحيّ الذي به يقوى على عدم الإقرار لإسرائيل بملكية أي أرضٍ احتلتها أو اكتسبتها، مهما كانت الضغوطات التي تمارس عليه، ومهما كانت التضحيات التي تترتب على ثبات المقام الفلسطينيّ على موقفه (عبد الرحمن، ٢٠١٨، ص ٤٢).

٢- **<u>ترسيخ ثقافة الائتمان</u>**؛ إذا كان المالك الحقيقي للأرض المقدسة هو الله سبحانه وتعالى؛ فتكون ملكية المقاوم الفلسطينيّ لتلك الأرض هي ملكية ائتمانية في المقام الأول؛ إذ إن الله تعالى قد ائتمنه على قدسيتها، وفضل ذلك أنه لا يجعل القضية

الفلسطينية محصورة في مجرد نطاق ملكية الفلسطينيين للأرض، بل إنهم مؤتمنون من الله تعالى ليس على الأرض في حد ذاتها، بل إنه ائتمان على قداستها، وهو ما يشعر المقاوم بمدى قدسية ما يدافع عنه، وهذا يجعله أثبت قدمًا ,أشد بأسًا في مقاومته الاحتلال (عبد الرحمن،٢٠١٨، ص ٤٥).

ولما كان الحال كذلك يرى طه عبد الرحمن أنه يجب على المقاوم الفلسطينيّ ألا ينظر إلى أرض فلسطين على أنها مجرد أرض هو مالكها؛ بل إنها أمانة في ذمته قد ائتمنه الله تعالى على قداستها، وهذه القداسة لا تزول عن الأرض مهما تعرضت للتدنيس باحتلال إسرائيل لها؛ بل إنها باقية، كما يجب على المقاوم الفلسطينيّ أن يؤمن بأن مقاومته هي حالة لا يحدها زمان أو مكان، بل إن روح المقاومة يجب أن يبثها في كل زمان وفي كل مكان، وينقلها من جيل إلى آخر إلى أن تقوم الساعة (عبد الرحمن، ٢٠١٨، ص ٥١-٥٢).

ب- <u>التصدي لإفساد فطرة الإنسان الفلسطينيّ بتجديد أصالة تلك الفطرة</u>

وتصدي المقاومة لعملية إفساد فطرة الإنسان الفلسطينيّ الذي يقوم بها الاحتلال الإسرائيليّ تتطلب منه التمسك بالقيم الروحية الأصيلة الموجودة في فطرة الإنسان، التي تعيد له ثقته بنفسه وإيمانه بمستقبله، الذي أرداه الله تعالى له؛ بجعله مؤتمنًا على المقدسات، وهو أمر يمد روحه بطاقة تساعده على المقاومة، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يجب عليه توعية المجتمعات "المطبعة" مع الاحتلال الإسرائيليّ بآثار التطبيع على كيانها، وذلك عن طريق إعادة تأسيس القيم على الصفات الفطرية الأصلية، وإعادة تأسيس الروح الإسلامية على الصبغة المقدسية، وإعادة تأسيس الروح كذلك على القرب الإلهيّ (عبد الرحمن، ٢٠١٨، ص ٥٢-٦٠).

١- **<u>إعادة تأسيس القيم على الصفات الفطرية الأصيلة</u>**؛ إذ يجب على المقاومة توعية المطبعين مع الكيان الإسرائيليّ بأن قيم التطبيع كالمصالح والمكاسب المادية هي قيم زائفة وزائلة، غطت الفطرة الأصيلة، وأدت إلى أن يصبح المطبع عبدًا للاحتلال الإسرائيليّ ينفذ أوامره، وإذا كان الأصل في القيم التي أفضت إلى هذا الاستعباد هو الصفات المادية العارضة والزائلة التي علقت بالفطرة، فيجب أن يكون الأصل في القيم التي تفضي إلى التحرر هي الصفات الروحية الثابتة والباقية (عبد الرحمن، ٢٠١٨، ص ٥٩).

٢- **<u>إعادة تأسيس الروح الإسلامية على الصبغة المقدسية</u>**؛ إذ يجب على المقاومة الفلسطينية دعوة مواطنيها إلى التفكير في الصلة بين بيت المقدس، ودينهم عن طريق التذكير بذلك الموروث الروحيّ الذي اختص به بيت المقدس، فهو قبلة الأنبياء، وهو المكان الذي عرج منه الرسول الكريم ﷺ إلى الله عز وجل، وإعادة

تأسيس الروح الإسلامية على الصبغة المقدسية يعني الخروج من التصور الضيق والظاهر الذي يجعل من إسراء الرسول ﷺ إلى بيت المقدس وعروجه منه إلى الله عز وجل واحدة من المعجزات التي تدل على رسالته، إلى تصور أوسع مدى يجعل الصبغة المقدسية هي المعبرة عن روح الإسلام التي تعني إسلام الوجه لله تعالى، والتطبيع مع الاحتلال بلا شك يضيع تلك الصبغة المقدسية المعبرة عن روح الإسلام (عبد الرحمن، ٢٠١٨، ص ٦٠).

٣- **إعادة تأسيس الروح على القرب الإلهيّ**، والذي يحصل بأداء العبادات والنوافل، ولا سيما الصلاة والصبر عليها، وهي تجدد للإنسان إيمانه، وتجعله أقرب ما يكون من ربه ولا سيما في حال سجوده؛ لذلك يجب على المقاوم الفلسطينيّ استحضار حالة السجود التي يكون فيها أقرب ما يكون من ربه في كل أعماله الدنيوية المعهودة، وهذا القرب من الله تعالى في كل أعماله يجعله قادرًا على التصدي لكل أشكال العبودية لغير الله تعالى، ومنها التطبيع مع الاحتلال الإسرائيليّ (عبد الرحمن، ٢٠١٨، ص ٦١).

وإذا كانت المقاومة الروحية لها أهميتها في تقوية روح المقاوم الفلسطينيّ، وإمداده بطاقات هائلة تساعده على مقاومته الاحتلال والتصدي لعدوانه، فإن المقاومة المادة هي الأخرى لا تقل أهمية عنها.

٣-الأسس الفلسفية للمقاومة المادية ضد الاحتلال الإسرائيليّ

يرى طه عبد الرحمن أن المقاومة الإسلامية استطاعت إحراز الكثير من الانتصارات المادية، التي يمكن أن تشكل " قومة " متكاملة تساعدها على الانتصار ضد قوى الشر والظلم المتمثل في الاحتلال الإسرائيليّ، ولا سيما تلك المقاومة التي قادها "حزب الله" في جنوب لبنان ضد الاحتلال الإسرائيليّ، بل وتجعلها أقرب إلى روح الحداثة التي يمكن أن تساعد الأمة على النهوض من عثرتها، ويرجع ذلك إلى وجود عدة أسس فلسفية تقوم عليها تلك المقاومة (عبد الرحمن، ٢٠٠٧، ص ٥٢).

وإذا كان الدكتور طه عبد الرحمن قد اختص النجاحات المادية للمقاومة الإسلامية ضد الاحتلال الإسرائيليّ فيما قام به "حزب الله" في جنوب لبنان، فإنني أرى أنه لا يمكن استثناء ما قامت به المقاومة الفلسطينية ضد الاحتلال الإسرائيليّ داخل الأراضي الفلسطينية المحتلة في يوم السابع من أكتوبر من عام ألفين وثلاثة وعشرين، وما بعده، وأرى أن تلك النجاحات تستند لذات الأسس والمبادئ التي ساعدت المقاومة اللبنانية على الصمود أمام العدو الإسرائيليّ.

وتتمثل تلك الأسس والمبادئ الفلسفية لصمود المقاومة في التصدي للاحتلال الإسرائيليّ ماديًا في: مبدأ المعية الإلهية، ومبدأ الاتصال الروحيّ، ومبدأ العلم المستعمل، ومبدأ الشخصية المتكاملة، ومبدأ الصدق الكامل.

أ- مبدأ "المعية الإلهية"

المعية الإلهية لها معنيان: الأول- أن يكون الله تعالى مع المقاوم، والثاني- أن يكون المقاوم مع الله تعالى، **ومعية الله تعالى للمقاوم** إما عامة تشمل كل الخَلق بحكم ربوبية الله لكل شيء، وإما خاصة يختص بها عباده المخلصين الذين رضي عنهم فوهبهم الصدق، والتقوى، والإحسان، والصبر، والتطهر، والتوكل، وحسن العبادة، **ومعية المقاوم لله تعالى** تتمثل في مجاهدة نفسه؛ فيتحلى بالصفات المحمودة، ويتخلى عن الصفات المذمومة؛ حتى يشهد الله قائمًا معه في كل ما يقوم به من أفعال (عبد الرحمن، ٢٠٠٧، ص ٥٩).

ب- مبدأ "الاتصال الروحيّ"

تحقق المقاوم بالمعية الإلهية يجعله في اتصال روحيّ دائم مع الله تعالى، بل تصبح الروح هي القانون الذي يحكم تصرفاته، ويمده باستعدادات وقدرات وصفات خارقة بها يصبح المحال ممكنًا؛ فهو يستحضر أمام عينه الماضي والمستقبل، وعالم الشهداء وعالم الأحياء، يرى الآخرة أقرب من رؤيته الدنيا، ويعرج بروحه إلى السماء ليستمع إلى من جادوا بأرواحهم لله تعالى قبله يحدثونه بما وجدوا عند الله تعالى، فيشتاق لهم وإلى ما عند الله، ويكون لذلك عظيم الأثر في عقيدته؛ فيرتقي بالعبادات التي يؤديها حتى يتحقق بالإخلاص فيها، وكل ذلك يمده باستعدادات روحية تساعده على مقاومته المادية وصموده في وجه الاحتلال الإسرائيليّ (عبد الرحمن، ٢٠٠٧، ص ٦٠).

ج- مبدأ "العلم المستعمل"

ضمت المقاومة في صفوفها كثيرًا من علماء الدين، الذين جمعوا بين العلم والعمل، وكان لديهم قدرة متميزة على إبداع أساليب جديدة وعملية في مقاومة الاحتلال الإسرائيليّ، وكان لهم فضل كبير في إعادة الدور التعبويّ والجهاديّ للمساجد مرة أخرى، فضلًا عن دورها الدينيّ والتربويّ، فكان من بين هؤلاء العلماء من يدعون إلى الاعتصامات، ويقود الحركات الشعبية للاحتجاج والتظاهر ضد الاحتلال، ومنهم من تدرب على حمل السلاح وباشر القتال بنفسه مع العدو الإسرائيليّ، ومنهم من جعل المقاومة بمختلف أشاكلها هي الطريق الوحيد للقضاء على الاحتلال وأفتى بذلك في كل مكان، وقد ساعد كل ذلك المقاومة على تحقيق الكثير من النجاحات على الصعيدين الداخليّ والخارجيّ (عبد الرحمن، ٢٠٠٧، ص ٦٧).

د- مبدأ "الشخصية المتكاملة"

والمقصود بالشخصية المتكاملة هو توافر المقومات العقدية، والسلوكية، والفكرية التي تؤهل المقاوم للحالة الجهادية؛ وتُعد أسلوبًا للحياة، يوجه المقاوم في كل ما يقوم به من أعمال عقدية وسلوكية وفكرية؛ فيرى أن الغاية من حياته هي الجهاد ليس على جبهات

القتال، والاستعداد للاستشهاد فقط؛ بل إن هذه الحالة تلازمه خارج ساحات المعارك أيضًا، وهذه الحالة الجهادية ترتقي بآرائه واجتهاداته، وتوسع مجال تأثيرها في كل ما يقوم به من أعمال؛ من أجل مقاومة الاحتلال (عبد الرحمن، ٢٠٠٧، ص ٦٨-٦٩).

هـ- مبدأ "الصدق الكامل"

يُعد الصدق من أهم المبادئ التي أدت إلى صمود المقاومة أمام الاحتلال الإسرائيليّ؛ إذ إن المقاوم لا يقطع بنصر الله له، حتى يجاهد نفسه فيكون صادق التوجه في أعماله إلى الله وحده؛ لينال مرضاته؛ فلا يخالف ظاهره باطنه، ولا عمله نيته، ومبدأ الصدق لدى المقاوم لا يكون مع النفس فقط؛ بل يكون كذلك مع العدو سواء في وعيده له أو في تنفيذ ما تم التعاهد عليه، وكذلك يكون الصدق مع العالم في وقت أضحت ممارسة السياسة فيه مقترنه بالغش والخداع والمهارة في الكذب؛ بل إن المقاومة هي النقطة المضيئة التي تبقى تذكر السياسيين في العالم بواجب الصدق، وتعلمهم أيضًا كيف يكون الصدق قولًا وفعلًا (عبد الرحمن، ٢٠٠٧، ص ٧٥-٧٦).

وأرى أن مبدأ الصدق الكامل الذي تحدث عنه طه عبد الرحمن الذى يجب أن يتحلى به المقاوم هو إشارة واضحة إلى قول الحق عز وجل: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ (الأحزاب، آية ٢٣).

وعلى الرغم من وجود تلك العوامل التي تمد المقاومة الفلسطينية بالطاقة الروحية التي تمكنه من الصمود في وجه العدو الإسرائيلي، فإن هناك عجزًا وضعفًا من الدول الإسلامية عن تقديم يد العون للشعب الفلسطينيّ، وللمقاومة التي تتصدي لعدوان الاحتلال، ولو بتوفير أبسط مقومات الحياة من مأكل، ومأوى، ومياه، وعلاج، ويحضرني هنا كلام الدكتور حسن حنفي حينما رأي تخاذل العرب عن مساندة الشعب الفلسطيني في انتفاضتهم ضد الاحتلال الإسرائيليّ في عام ٢٠٠٦م؛ إذ وصف شعور العرب وقتئذ بالعجز، والمهانة، وامتهان الكرامة، والتضحية بشعب عربيّ بأكمله، نسائه، وأطفاله، وشيوخه، وشبابه، وحذر من ضياع ما تبقى من فلسطين؛ إذا استمر ذلك العجز العربيّ والإسلاميّ (حنفي، ٢٠٠٧، ص ٢٣)، ولكن لا حياة لمن تنادي.

ويرجع سبب ذلك العجز - من وجهة نظري- إلى تسيد الأنظمة الاستبدادية على البلاد الإسلامية، وسيطرة الدول الغربية على المجال الاقتصاديّ، والتقنيّ، والاتصالات في العالم عن طريق "العولمة"؛ لذلك أرى أنه من الضرورة بمكان وجود فلسفة إسلامية تقاوم "الاستبداد"، وتقاوم الآثار الناجمة عن "العولمة".

ثالثًا- فلسفة المقاومة والاستبداد عند طه عبد الرحمن

يربط طه عبد الرحمن بين الاستبداد والسلطة أو حب السلطة، وهو ما اطلق عليه مصطلح "التسيد"، أو حب "التسيد"، ويرى أن استحكام صبغة الاستبداد الكامل على

المجتمع؛ والذي يظهر من خلال الممارسات التي تتخذها سلطات الدولة "المتسيدة" لإدارة شئون البلاد، هو أمر يضر بالبلاد والعباد؛ بل يهدد وجود المجتمع ذاته، ومهما حاولت الدساتير والقوانين من تقيده، فهو لا ينفك عن نوعين من الظلم: الأول- هو ظلم لله عز وجل في منازعته السيادة، والثاني- هو ظلم الخلق باستعبادهم (عبد الرحمن، ٢٠١٢، ص ٣٠٣).

الاستبداد عند طه عبد الرحمن ينشأ عن "التسيد" أو حب "التسيد"؛ إذ إن ذلك يؤدي إلى استعباد المجتمع؛ وتستعبد السلطة المستبدة المجتمع كله إما طوعًا وإما كرهًا، وتستخدم في ذلك طرقًا مادية، ومعنوية؛ مثل: أن تخلط بين واجب الحماية وممارسة القمع، وحفظ الأمن ومزاولة الترهيب، كما تستخدم طرقًا معنوية مثل: التهويل من آثار زعزعتها، والتخويف من كل بديل يحل محلها، وتسخير وسائل الإعلام للدعاية لها؛ من أجل "برمجة" المجتمع وتنميطه وتسخيره لخدمة أهدافها، بل القضاء على أي طاقات مبدعة قادرة على مقاومتها (عبد الرحمن، ٢٠١٢، ص ٣٠٤).

ولما كان الحال كذلك لزم التصدي للاستبداد ومقاومته، وهناك ثلاث وسائل لمقاومة الاستبداد عند طه عبد الرحمن، وهي: إما بالقوة ويطلق عليها "مقاومة بالسلطان"، وإما بالقول ويطلق عليها "مقاومة بالبرهان"، وإما بالروح ويطلق عليها "مقاومة بالوجدان" (عبد الرحمن، ٢٠١٢، ص ٢٩٠).

١- **المقاومة بالقوة (مقاومة بالسلطان)**، وتعني استعمال القوة المادة بما فيها من "عنف بدنيّ" أو القوة النفسية؛ التي تتضمن أساليب القهر والقمع؛ بغرض مقاومة الاستبداد، والاستيلاء على السلطة بالقوة، ومن أهم أشكال المقاومة بالقوة: الثورة، والتمرد، والانقلاب (عبد الرحمن، ٢٠١٢، ص ٢٩٠).

ولا يرجح طه عبد الرحمن هذا الأسلوب لمقاومة الاستبداد؛ ذلك لما ينتج عنه من عنف، وظلم، وأذي يلحق أفراد المجتمع، وهذا يؤدي إلى اضطراب المجتمع.

٢- **أما المقاومة بالقول (مقاومة بالبرهان)**، فالمقصود بها هو مقاومة الاستبداد بالطرق المعروفة في الديمقراطيات الحديثة مثل: الانتخابات التي يكون غرضها التخلص من السلطة المستبدة؛ لتحل محلها سلطة غير مستبدة، ولكن إن كانت هذه الطريقة أقل قوة وعنفًا من الطريقة السابقة، فإنها لا تخلو من العنف اللفظيّ، والدليل على ذلك ما يحدث من مناقشات صاخبة في مجالس التجمعات الديمقراطية والانتخابية قد يصل إلى حد إلحاق الأذى بالآخرين بحجة حرية التعبير عن الرأي، وقد تنقلب إلى صراعات يغلب عليها العنف المعنويّ (عبد الرحمن، ٢٠١٢، ص ٢٩٢).

ويرفض طه عبد الرحمن أيضًا المقاومة "بالبرهان" بوصفها وسيلة لمقاومة الاستبداد، لذات الأسباب التي دعته إلى رفض المقاومة "بالسلطان"؛ إذ إن المقاومة بالقول هي أيضًا تتضمن العنف، وإن كان عنفًا معنويًا؛ فهو يؤدي كذلك إلى ظلم وأذي يلحق بالآخرين.

٣- **والمقاومة بالروح (مقاومة بالوجدان)**، والمقاومة بالروح تعني الخروج من ظلمات الاستبداد بمجاهدة النفس التي لا تكون إلا بتزكية الروح، ويكون ذلك بالتقرب من الله عز وجل والتعبد له بالعبادات المفروضة والنوافل، وتذكير النفس بالشهادة الأولى التي كانت في عالم الذر؛ حيث الإقرار بالربوبية لله عز وجل؛ إذ إن العبودة لا تكون لغير الله تعالى، وهو أمر مهم في مقاومة الاستبداد الذي يستعبد العباد؛ فتزكية الروح يورث حب الإيمان الذي يطرد حب السلطان أو "التسيد" من قلب العبد، كما أن تزكية الروح تورث أيضًا وازعًا خُلقيًا من الحياء تمنع النفس عن ارتكاب المخالفات والمحرمات، وعن ظلم الآخرين أو إلحاق الأذى بهم (عبد الرحمن، ٢٠١٢، ص ٣٧٣-٢٧٥).

ويرى طه عبد الرحمن أن هذه المقاومة هي مقاومة "سلمية"، ولما كان الحال كذلك نجده يرفض طريقة المقاومة "بالسلطان"، وطريقة المقاومة "بالبرهان" بوصفها أسلوبًا لمقاومة الاستبداد؛ ذلك لما ينجم عنهما من عنف، سواء أكان ذلك العنف ماديًا، أم أكان عنفًا معنويًا، كما أنهما ينطويان على ظلم ينال بعض الأفراد، ويتضمن هضمًا لحقوقهم، وهو أمر يؤثر سلبًا في المجتمع، ويهدد أمنه واستقراره؛ إذ إن كلًا منهما يهدف إلى الوصول إلى السلطة، والتي تتضمن الاستبداد واستعباد الآخرين؛ لذلك يفضل الطريقة الثالثة لمقاومة الاستبداد وهي المقاومة الروحية بالوجدان؛ لأنها مقاومة "سلمية".

والمقاومة بالوجدان، فحواها مجاهدة النفس وتزكية الروح، وهدفها التعبد وليس "التسيد"؛ إذ إن "التسيد" في حقيقة الأمر هو تعبد للذات وتعبد للطاغوت؛ في حين أن القصد الأول من التزكية هو تحقيق التعبد لله تعالى، والتعبد لله تعالى يعني التحرر مما سواه، بدءًا بحب الذات وانتهاء بحب "التسيد" أو التنازع على الحكم و"السلطان"، وتزكية الروح قائمة على صفتين أساسيتين عند طه عبد الرحمن، وهما "حب الإيمان"؛ والذي يعني الاعتراف أن السيادة الحقة هي لله رب العالمين، وتذكير النفس بهذه الحقيقة التي أقر بها في شهادته الأولى؛ فلا ينازع الذات الإلهية فيها، و"وازع الحياء" مترتب على حب الإيمان الذي يدفع النفس إلى عدم ظلم الآخرين (عبد الرحمن، ٢٠١٢، ص ٢٩٠).

ولما كان الحال كذلك فإن المقاومة الوجدانية أو الروحية هي الكفيلة بمقاومة الاستبداد؛ إذ إنها لا "تتسيد" على الناس كما في حالة المقاومة "السلطانية"، كما أنها لا تسعى إلى "التسيد" على الناس كما هو الحال في المقاومة "البرهانية" التي تتم بالانتخابات؛ بل تقصد

مجاهدة النفس وتزكية الروح الذي يورث في القلب حب الإيمان، كما يورث وازع الحياء الذي يمنع النفس عن ظلم الناس أو إلحاق الأذى بهم، وإذا تحقق للإنسان هذا يكون قد وصل إلى المعنى الحقيقيّ لوجود الإنسان هو "التعبد" وليس "التسيد"، وإدراك الإنسان لهذه الحقيقة تمده بطاقات هائلة تساعده على عدم الاستبداد الذي قد يمارسه على الآخرين، كما تساعده على مقاومة الاستبداد الذي يقع من الآخرين عليه.

والمقاومة الروحية الوجدانية للاستبداد تتخذ صورة خاصة عند طه عبد الرحمن اطلق عليها مصطلح "الإزعاج"(*)، والإزعاج في اللغة يفيد الدفع والإخراج؛ إذ يقال: أزعجه من مكانه؛ أي دفعه عن مكانه, وأخرجه إلى مكان آخر، والمقصود به عند طه عبد الرحمن هو إخراج الظالم من ظلمه إلى العدل، وإخراج "المتسيد" من "التسيد" على الناس إلى التعبد لرب الناس، وما يندرج في التعبد لله تعالى من التزام النفس لمعاني الحق، والعدل، والخير؛ فيكف أذاه عن الناس (عبد الرحمن، ٢٠١٢، ص ٢٩٦).

والإزعاج الذي تتم به المقاومة الروحية للاستبداد عند طه عبد الرحمن له عدة خصائص منها: (عبد الرحمن، ٢٠١٢، ص ٢٩٧-٣٠٧):

- "الزاعج" الذي يقوم بمهمة إزعاج المستبد "المتسيد" على الناس لا يستحق أن يتولى هذه المهمة، حتى يكون هو نفسه قد ترقى في أحواله، وأخلاقه بالانزعاج؛ فتبدلت أحواله بالتخلي عن الصفات المذمومة والتحلي بالصفات المحمودة، ويكون إزعاجه خالصًا من الأغراض والحظوظ.
- لزم أن ينتج عن الإزعاج تغير في حال "المزعَج" – "المتسيد" على الناس– من الحال التي كان عليها إلى حال أفضل يكون بموجبها أقرب إلى حال الفطرة وهي "التعبد"؛ حتى ينصلح حاله، ويكف ظلمه وأذاه عن الآخرين؛ فالإزعاج هو تولي المقاوم إحياء روح المستبد بعد موتها.
- الإزعاج في المقاومة الروحية يمارس مراقبته لسلوك "المتسيد" عن طريق الوازع الداخليّ، وذلك بخلاف المقاومة "بالسلطان" أو المقاومة "بالبرهان"؛ إذ إن ممارسة الرقابة من المحكومين على "المتسيد" تكون خارجية عن طريق القوانين واللوائح؛ فالإزعاج يسعى إلى أن يولد لدى الفرد وازع من داخل نفسه يمنعه عن الظلم.
- الإزعاج يؤدي إلى صلاح المجتمع؛ إذ يهدف إلى تنبيه أفراد المجتمع إلى ضرورة العمل على تربية النفس وتزكية الروح؛ حتى يتعودوا العدل في معاملة بعضهم

(*) أشار طه عبد الرحمن إلى أن ابن عربيّ (ت٦٣٨هـ) قد سبقه إلى استعمال لفظ "الإزعاج" في الفتوحات المكية،؛ ولكن استعمال طه عبد الرحمن له ينصرف إلى المقاومة الروحية للاستبداد، في حين أن استعمال ابن عربيّ له يشير إلى انتباه القلب من سِنَة الغفلة إلى الأنس والوجد؛ باندفاع النفس انزعاجًا من حال كانت عليها إلى حال أفضل منها (ابن عربيّ، ١٩٩٩، ص ١٨١).

لبعض؛ وبذلك يصبحون قوة قادرة على إزعاج الحكام المستبدين إلى العدل بما أشاعوه في المجتمع من قيم: الحق، والعدل، والخير.

- الإزعاج في المقاومة الروحية لا يؤدي إلى تحرر المجتمع من الاستبداد دفعة واحدة أو عبر تحول طفريّ يحدث فجأة؛ بل عبر تحول فطريّ في نفوس الحاكم والمحكومين يستغرق زمنًا غير قصير، حتى يسترجع قوة استبصاره الروحيّ، وتستقيم أخلاقه.
- الإزعاج إلى الحرية يتخذ صورًا مبدعة في مقاومة الأعمال الاستبدادية، قد تؤدي إلى انقطاعات أو انكسارات أو تصدعات في مسار تلك الأعمال، ويشكك في جدواها حاضرًا ومستقبلًا، طمعًا في أن يتنبه المستبدون من غفلتهم، وينزعجوا إلى تغيير سلوكهم؛ فتضعف شهوة "التسيد" فيهم، وتميل أعمالهم إلى "التعبد"، الذي يدفعهم إلى سلوك طريق الحق، والعدل، والخير مع الآخرين في حكمهم.

والخلاصة أن فلسفة المقاومة ضد الاستبداد عند طه عبد الرحمن تدعو إلى المقاومة الروحية القائمة على تربية النفس وتزكية الروح وهي طريقة يرى أنها سلمية تحفظ للمجتمع استقراره، ولا تؤدي إلى العنف الذي يجعل المجتمع في اضطراب مستمر يهدد وجوده، وهي طريقة تدريجية تبدأ بالفرد ثم تنتقل شيئًا فشيئًا إلى كل أفراد المجتمع، وحينئذ يكون لدى المجتمع القدرة على مقاومة استبداد الحاكم.

وإذا كان الأمر كذلك، وكانت فلسفة المقاومة ضد الاستبداد عند طه عبد الرحمن تدعو إلى المقاومة السلمية، فإنه يمكن القول: إن هناك كثيرًا من المفكرين المسلمين في العصر الحديث والمعاصر قد سبقوا طه عبد الرحمن إلى تلك الدعوى مثل: عبد الرحمن الكواكبيّ (ت١٩٠٢م)، لا سيما في كتابه "طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد"؛ إذ إن الاستبداد عند الكواكبيّ هو صفة للحكومة المطلقة العنان فعلًا وحكمًا؛ إذ هي تتصرف في شئون الرعية كيفما تشاء من دون خشية حساب أو عقاب محققين، وصفة الاستبداد تشمل حكومة الحاكم الفرد المطلق الذي تولى الحكم بالغلبة أو الوراثة، وتشمل كذلك الحاكم الفرد المقيد المنتخب؛ متى كان غير مسؤول (الكواكبيّ، ٢٠١١، ص ١١-١٣).

وفلسفة الكواكبيّ في مقاومة الاستبداد وكيفية التخلص منه تقوم على ثلاث قواعد سلمية تدعو إلى مقاومة الاستبداد باللين وليس بالشدة والعنف، وهو الأمر ذاته الذي يدعو إليه طه عبد الرحمن؛ إذ يرى الكواكبيّ أن الأمة التي لا يشعر أفرادها كلهم أو أكثرهم بآلام الاستبداد، لا تستحق الحرية، كما أن الاستبداد لا يقاوم بالشدة، بل يقاوم باللين والتدرج، وكذلك يجب قبل مقاومة الاستبداد، تهيئة ماذا يستبدل به الاستبداد (الكواكبي، ٢٠١١، ص ١٧٩).

فالأمة التي لا يشعر أفرادها بآلام الاستبداد، لا تستحق أن تنال شرف الحرية، ولا تُجدي مقاومة الاستبداد في هذه الحالة، إلا إذا وجد في هذه الأمة الميتة التي لا يشعر

أفرادها بآلام الاستبداد، فرد محب لوطنه غيور على حريته وكرامته، يعلم جيدًا مساوئ الاستبداد، ويحاول أن يبث فيها الحياة مرة أخرى بنقل ما يعلمه وما يشعر به إلى الآخرين حتى يشعروا بآلام الاستبداد، وينتقل هذا الشعور من الأفراد إلى الجماعات، حتى يشمل معظم أفراد الأمة، ويصبح لديهم الشجاعة والحماسة؛ لمقاومة الاستبداد؛ فلا يستطع المستبد أن يقف في طريقهم؛ لأنهم أصبحوا كالسيل يجر كل ما يعترض طريقه إلى أن يبلغ منتهاه (الكواكبيّ،٢٠١١،ص ١٨١).

ويرى الكواكبيّ كذلك أن الاستبداد لا يقاوم بالشدة والعنف؛ لأن المستبد يحيط به كثير من أصحاب القوة، والنفوذ مثل: الجند، وأصحاب الثروات، والطغاة الظالمين، والمؤيدين له من الأجانب، وهذه القوة تجعل الاستبداد كالسيف يحصد بها المستبد رقاب من يقاومه بالعنف؛ لذلك يجب أن يقاوم الاستبداد بالحكمة والتدرج؛ إذ إن الاستبداد قد يبلغ مداه من الشدة والعنف، ويكون ذلك مدعاة لتفجر الفتنة ضد الاستبداد تلقائيًا، وهنا يجب على عقلاء الأمة أن يبتعدوا عن تلك الفتنة في بدايتها حتى إذا هدأت ثورتها قليلًا بعد أن قضت على أعوان المستبد من المنافقين، استعملوا الحكمة في توجيه تلك الثورة نحو تأسيس العدالة، وإقامة حكومة لا عهد لرجالها بالاستبداد (الكواكبيّ،٢٠١١،ص ١٨٤-١٨٥).

ويجب قبل مقاومة الاستبداد عند الكواكبيّ تهيئة ما يحل محله؛ حتى تكون الغاية معروفة عند مقاومة الاستبداد، والطريق لتحقيق هذه الغاية محدد وفق خطة واضحة يوافق عليها الأكثرية، وإشهارها بين الكافة، والسعي إلي إقناعهم بها، ونيل رضاهم عنها؛ بل حمل العامة على النداء بها، وطلبها من عند أنفسهم، وإلا سوف يقع الخلاف في أثناء الطريق، ويفسد العمل، وتفشل المقاومة، وتظهر الفتن والمكائد التي تجر البلاد والعباد إلى الدمار والخراب (الكواكبيّ،٢٠١١،ص ١٨٨).

ولما كان الحال كذلك فإنني ألحظ أن فلسفة المقاومة ضد الاستبداد " عند طه عبد الرحمن، ولا سيما "الروحية" ووسيلتها "الإزعاج"، تتفق مع فلسفة المقاومة عند الكواكبيّ؛ إذ إن كلًا منهما يرى ضرورة مقاومة الاستبداد بالطرق السلمية وليس بالقوة والعنف؛ إذ إن المقاومة بالقوة تؤدي إلى فتنة قد تحصد فيها رقاب العباد، أو يقع عليهم أذي ماديّ أو معنويّ من المستبد، وتضطرب فيها أحوال البلاد، وهي أيضًا تبدأ بالفرد ثم ترتقي من الفرد إلى الجماعات، ثم إلى المجتمع كله، كما أنها لا تتم دفعة واحدة بل على سبيل التدريج إلى أن تصبح قوة تقف في مواجهة المستبد.

وأرى أن تبني فلسفة مقاومة الاستبداد بالطرق السلمية يمكن أن يساعد المقاومة الفلسطينية على الصمود في وجه الاحتلال الإسرائيليّ، وكذلك الحال في وجود فلسفة لمقاومة ما نجم عن العولمة من اعتلال في القيم الخُلقية، وهو أيضًا يمكن أن يساعد المقاومة الفلسطينية على الصمود.

رابعًا– فلسفة المقاومة والعولمة عند طه عبد الرحمن

هناك اختلاف حول مفهوم "العولمة"؛ لذلك تعددت الدراسات التي حاولت تحليل مفهوم "العولمة" بين التأييد والرفض، وبين التخويف والترقب، وبين الاستسلام والمقاومة بوصفها واقعًا لا مفر منه (بو علي، ٢٠٠٧، ص ٤١٥).

والعولمة في معناها اللغويّ تفيد تعميم الشيء وتوسيع دائرته؛ ليشمل العالم كله، ومن ناحية أخرى تعد العولمة آلية من آليات تطور النظام الرأسماليّ تهدف إلى الهيمنة على العالم، وفرض نموذج معين في الاقتصاد، والإعلام، والثقافة على العالم كله وهو النموذج الغربيّ الرأسماليّ، ولا سيما الأمريكيّ (الجابريّ، ١٩٩٧، ص ١٣٦–١٣٧)، وأيضًا (الجابريّ، ١٩٩٧، ص ٣٠٠).

وقد ذاع مصطلح "العولمة" في الفترة الأخيرة للترويج لظاهرة اقتصاد السوق الحر بعد انهيار النظم الاشتراكية في بلدان أوربا الشرقية، والاتحاد السوفيتيّ، ليشرع للعالم ذي القطب الواحد، ويؤكد الدكتور حسن حنفي أن العولمة هي شكل من أشكال الاستعمار الجديد؛ لذلك يجب النظر إلى العولمة على أنها مسألة صراع ومقاومة دفاعًا عن الاستقلال ضد التبعية (حنفي، ٢٠٠٤، ص ٤٩٨)، وأيضًا (راغب، ٢٠٠١، ص ٥).

يقول الدكتور حسن حنفي: إن المقاومة تقوم على تحليل حال الأمة في تبعيتها أو استقلالها، وأوضاعها الاقتصادية، والاجتماعية، حريتها أو قهرها، عدلها أو ظلمها، وليس فقط أحوال الأفراد (حنفي، ٢٠٠٧، ص٣٧)، وقد أفقدت العولمة الأمة الإسلامية استقلالها الاقتصاديّ، والسياسيّ؛ فباتت الدول العربية والإسلامية تابعة للدول الغربية؛ التي لا يهما إلا مصالحها المادية.

والعولمة من وجهة نظر الدكتور طه عبد الرحمن هي: فعل حضاريّ متواصل غرضه "عقلنة" العالم بما يجعله يتحول إلى مجال واحد من العلاقات بين المجتمعات والأفراد عن طريق تحقيق السيطرة على المجال الاقتصاديّ والسيطرة على المجال التقنيّ، والسيطرة على مجال الاتصالات (عبد الرحمن، ٢٠٠٦، ص ٧٨).

وقد ظهر لطه عبد الرحمن أن نظام العولمة دخلت عليه آفات خُلقية خطيرة؛ إذ يتخذ من العقلانية الغربية وسيلة له، وتلك "العقلانية المضيقة" لا تنظر إلا للاعتبارات المادة فقط، ولا يمكن دفع هذه الشرور وتلك الآفات الخُلقية إلا بتبني العولمة "للعقلانية الموسعة" التي لا تهمل الجانب الروحيّ بجانب اهتمامها بالجانب الماديّ، وهو أمر دعت إليه الأديان السماوية، ولا سيما الدين الإسلاميّ؛ لذلك حاول طه عبد الرحمن بيان تلك الآفات، وحدد الطرق اللازمة لمقاومتها ودفعها.

١– الشرور والآفات الخُلقية الناجمة عن العولمة

وتتمثل هذ الشرور في آفة الإخلال بمبدأ التزكية في المجال الاقتصاديّ، وآفة الإخلال بمبدأ العمل فيما يتعلق بالمجال التقنيّ، وآفة الإخلال بمبدأ التواصل في مجال الاتصالات.

أ- **آفة الإخلال بمبدأ التزكية في المجال الاقتصادي**

أطلقت العولمة يد الشركات العملاقة التي تستثمر وتسوق حيثما شاءت وكيفما شاءت لا يحدها وطن، ولا سيادة، هدفها تنمية مواردها المادية فقط، وهي تهمل التنمية الروحية لأخلاقها؛ إذ وقعت في تقديس الاقتصاد الرأسماليّ؛ فلا تطلب سوى الحصول على المصالح المادية فقط، وأهملوا الجانب الأخلاقيّ منها، أما التزكية، فهي تشترط في المنفعة العائدة من المجال الاقتصاديّ أن يتحقق بها صلاح حال الإنسان، سواء أكان هذا الصلاح ماديًا أم أكان معنويًا، أما الاكتفاء بالمنفعة المادية فقط ، والتي يمكن أن تلبي بعض من احتياجات الإنسان، فهي تفسد القيم الخُلقية (عبد الرحمن، ٢٠٠٦، ص ٨٠).

ب- **آفة الإخلال بمبدأ العمل فيما يتعلق بالمجال التقني**

لقد سادت العقلانية الأداتية أو التقنية على الفكر الغربيّ الحديث والمعاصر، وهو أمر أسهم في ترسيخ مبادئ أضحت هي الموجه الحقيقيّ للنظر الفكريّ لدى الغرب في العصر الحديث، وهي الانفصال عن الأخلاق الدينية (ابن عدي، ٢٠١٢، ص ١٠٥-١٠٦).

وإذا كانت التقنية تطبيقًا للعلم؛ فمن ثم لزم أن تكون تابعة للعلم وخادمة لأغراضه، ويكون العلم سابقًا عليها وموجهًا لها؛ ولكن الأمر سار على خلاف ذلك؛ إذ إن العولمة جعلت العلم وسيلة في يد التقنية تزوده بآفاق جديدة تستنبطها من خصائصها الاستعمالية ونتائجها التحويلية، وتوجهه بحسب الاحتياجات الاستهلاكية التي تحددها آليات السوق في النظام الرأسماليّ، وأصبحت لا تهتم بالأعمال التي تهدف إلى تحقيق خير الإنسان من وراء هذه التقنية، وتسبب ذلك في الإخلال بمبدأ العمل بالعلم المؤدي إلى خير الإنسان، وهو المبدأ الذي يوجب الجمع بين مقتضى التحكم بالتقنية، ومقتضى الحكمة من استعمال تلك التقنية (عبد الرحمن، ٢٠٠٦، ص ٨٢).

ج- **آفة الإخلال بمبدأ التواصل في مجال الاتصالات**

كان الهدف من الاتصال هو التواصل واكتساب المعرفة عن طريق التجاوب مع تلك المعرفة بما يحقق الخير للإنسان؛ لكن في ظل العولمة سيطرت شبكة المعلومات "الإنترنت" على مجال الاتصالات، وبات الإنسان لا يدرك مدى الخير الذي يعود عليه من هذه المعلومات؛ لأنه لم يتواصل أو يتجاوب معها؛ إذ إن شبكة "الإنترنت" تكتفي بنقل المعلومة وليس بتجاوب الذوات معها الذي يعود عليه بالخير، وتسبب ذلك في الإخلال بمبدأ التواصل، وهو الذي يوجب الجمع بين تناقل المعلومات، وتجاوب الذات معها بما يعود عليه بالخير (عبد الرحمن، ٢٠٠٦، ص ٨٤).

وإذا كان الحال كذلك، فإنه يجب أن تكون المعلومات وسيلة لاكتساب المعرفة؛ عن طريق تجاوب الذات معها فنحن نتلقى المعلومات ونمزجها بما تدركه حواسنا ونقارنها

بما تخزنه عقولنا من واقع خبراتنا السابقة، ومن ثم نصدر حكمًا على تلك المعلومات بأنها نافعة لنا وتكسبنا معرفة جديدة، أو غير نافعة لنا ولا تضيف أي جديد لمعرفتنا (علي، ١٩٩٨، ص ١٠٧).

ولكننا نجد في نظام العولمة أن الشركات الاحتكارية الكبرى حولت المعلومات إلى سلعة غير مادية، وبدلًا من أن تكون المعلومات ذات قيمة نافعة تخضع لمعايير ثقافية وخُلقية واجتماعية، أصبحت تخضع لمعايير المصلحة، ولغة الأرباح (عبد القادر، ٢٠١٢، ص ٦٦).

ولما كان الحال كذلك فإن المسألة لا تتعلق بكثرة المعلومات التي تتناهى إلينا عن طريق شبكة المعلومات "الإنترنت"، بل المسألة تتعلق بكيفية تلقي هذه المعلومات، وعلى أي محك سيكون هذا التلقي، وما الذي يمكن أن يعود علينا بالفائدة من هذا الكم الهائل من المعلومات، ولا سيما أن المتاح من المعلومات تتعلق بمعلومات عديمة المنفعة أو الفائدة على الصعيد الاستراتيجيّ؛ والتي يمكن أن تحقق تنمية حقيقية في البلاد النامية؛ ولكنها معلومات موجهة؛ لتنمية الاتجاه الاستهلاكيّ لدى شعوب الدول النامية بما يعود بالفائدة على الدول الغربية المصدرة للعولمة (النشار، ١٩٩٩، ص ٥٩-٦٠).

والخلاصة أن هناك ثلاث آفات خُلقية ناجمة عن العولمة في مجالات سيطرتها، وهي **آفة الإخلال بمبدأ التزكية في المجال الاقتصاديّ**؛ إذ إن "التزكية" تشترط في المنفعة أن يصلح بها حال الإنسان، سواء أكانت هذه المنفعة مادية أم كانت معنوية؛ إذ قُدمت المنفعة المادية على المنفعة المعنوية في اقتصاد العولمة، **وآفة الإخلال بمبدأ العمل فيما يتعلق بالمجال التقنيّ**؛ إذ تُعد التقنية تطبيقًا للعلم، لزم عن ذلك أن تكون تابعة له وخادمة لأغراضه، فتكون له الأسبقية عليها، ولكن الأمر صار بخلاف ذلك في نظام العولمة؛ إذ قُدم الإجراء الآليّ على العمل الذي يهدف إلى تحقيق الخير للإنسان، **وآفة الإخلال بمبدأ التواصل في مجال الاتصالات**؛ وهو المبدأ الذي يوجب الجمع بين مقتضى تناقل المعلومات ومقتضى تجاوب الذوات مع تلك المعلومات بما يعود بالفائدة والخير عليها؛ ولكن ما تم في ظل العولمة هو تقديم المعلومة البعيدة التي قد لا تفيد الإنسان على المعرفة القريبة التي تفيد الإنسان (عبد الرحمن، ٢٠٠٦، ص ٩٧).

ولما كان الحال كذلك كان لابد من مقاومة الشرور الخُلقية الناجمة عن العولمة التي تأخذ من العقلانية المادية وسيلة لها في كل من المجال الاقتصاديّ، والمجال التقنيّ، ومجال الاتصالات، وهي لا تهتم إلا بتحقيق أكبر قدر من المنفعة المادية، وتهمل الجانب الروحيّ والخُلقيّ في حياة الإنسان، وهو أمر يجب مقاومته حتى يرد للقيم الخُلقية اعتبارها في حياة الإنسان.

١- مقاومة الشرور والآفات الخُلقية للعولمة

يرى طه عبد الرحمن أنه لا يقدر على مقاومة تلك الشرور ودفع هذه الآفات سوى الدين الإلهيّ، ولا سيما الدين الإسلاميّ؛ إذ إن الأخلاق الإسلامية هي الأقدر على مواجهة آفات العولمة، وتقويم إعوجاجها؛ من أجل صلاح البشرية؛ فالإنسان المسلم المعاصر مسئول عن العولمة، ولو لم يكن هو صانعها التاريخيّ، وهذه المسئولية توجب عليه أن يبادر إلى تعقب مظاهر العولمة، والتأكد من وجود القيم الخُلقية التي يجب أن تحملها معها، فإن كانت تعود عليه بالخير والصلاح أخذ بها، وإن كانت غير ذلك حذر منها وحاول التخلص منها وتغييرها (عبد الرحمن، ٢٠٠٦، ص ٨٦-٨٩).

ولما كان الحال كذلك فإن رفض قيم العولمة الغربية، لا يجب أن يكون مجرد كلام نقوله، بل يجب أن يتحول إلى واقع يظهر في كل ما نخطط له في عالمنا العربيّ والإسلاميّ في مختلف المجالات: الاقتصادية، والثقافية، والسياسية، والإعلامية، وغيرها، ونعيد بناء الذات الثقافية باستعادة قيمنا الأصيلة دينية، واجتماعية، واقتصادية (النشار، ١٩٩٩، ص ٥٥).

وقد حاول بالفعل طه عبد الرحمن تبني فلسفة لمقاومة الشرور الخُلقية الناجمة عن العولمة في أهم مجالات سيطرتها، ولا سيما الاقتصادية، والتقنية، والاتصالات.

أ- مقاومة آفة الإخلال بمبدأ التزكية في المجال الاقتصاديّ

يرى طه عبد الرحمن أنه يمكن مقاومة آفة الإخلال بمبدأ التزكية في المجال الاقتصاديّ عن طريق إعمال **مبدأ** "**ابتغاء الفضل**"؛ إذ إن التجارة في اقتصاد السوق العولميّ الغربيّ مجردة من الاعتبار الخُلقيّ، في حين أنها مقرونة بالاعتبارات الخُلقية في ظل مبدأ "ابتغاء الفضل" الذي دعا إليه الإسلام؛ والفضل هو الخير الذي تتحقق به الفضيلة ماديًا أو معنويًا، وينتج عن ذلك أن "السلعة" في سياق "ابتغاء الفضل" يجب أن تكتسي قيمة خُلقية، فضلًا عن قيمتها المادية، ويستوجب ذلك ضرورة إخضاع قوانين السوق المتغيرة لقواعد السلوك الأخلاقيّ الثابتة، ومن ثمَّ تخضع عملية البيع والشراء في الاقتصاد لرقابة أخلاقية؛ بحيث تأخذ في الاعتبار تحقيق الخير للإنسان ماديًا أكان أم معنويًا؛ من أجل صلاح البشرية، كما أن مبدأ "ابتغاء الفضل" في المعاملات الاقتصادية، يقوي من الصلة بين الإنسان وخالقه؛ لأن الله تعالى هو الذي بيده مصدر هذا الفضل والخير، وهذا يجعل القيم الخُلقية والروحية غير منفصلة عن التنمية الاقتصادية المادية في ظل العولمة (عبد الرحمن، ٢٠٠٦، ص ٩١)، وأيضًا (عبد الرحمن، ٢٠١٢، ص ٢١٩).

ب- مقاومة آفة الإخلال بمبدأ العمل فيما يتعلق بالمجال التقنيّ

ومقاومة آفة الإخلال بمبدأ العمل فيما يتعلق بالمجال التقنيّ- عند طه عبد الرحمن- يكون عن طريق إعمال **مبدأ** "**الاعتبار**" الذي دعا إليه الإسلام؛ أي النظر في

الحكمة من صنع تلك التقنية قبل كونها حالًا ومستقبلًا، بمعنى آخر الاستفادة من العلم في النظر إلى الحكمة التي من أجلها تصنع الأشياء التقنية في الحال والمآل؛ ومن ثم يجب ألا نندفع في تطبيقات العلوم إلا بالقدر الذي يعود بالنفع على الناس، وهو أمر يتطلب منا جعل البحث العلميّ خادمًا للحاجات الموجودة لا خالقًا لها؛ وينظر إلى تحقيق صالح الإنسان في كل حال (عبد الرحمن، ٢٠٠٦، ص ٩٣-٩٤).

ج- مقاومة آفة الإخلال بمبدأ التواصل في مجال الاتصالات

مقاومة آفة الإخلال بمبدأ التواصل في مجال الاتصالات – عند طه عبد الرحمن- يكون عن طريق إعمال **مبدأ** "**التعارف**" الذي دعا إليه الإسلام، وبمقتضاه يجب أن يكون الخبر المنقول بوجه من الوجوه يحقق "**معروفًا**" **للإنسان؛ أي يجلب له الخير**، كما يلزم أن يجد فيه المتلقي نفعًا يصلح به خُلقه؛ بحيث يصبح تناقل الأخبار بين الملقي والمتلقي تناقلًا للخير، وليس مجرد نقل للمعلومات قد تنفع أو تضر، وهذا يعني أن تكون العلاقة بين الملقي والمتلقي علاقة أخلاقية في المقام الأول تقوم على فعل المعروف، وروابط الاحترام المتبادل، والانفتاح، والتسامح، والتعاون، والتقارب، و"المعروف" في مجال التواصل يعني والإقرار بالتمايز الثقافيّ والحضاريّ الذي يفضي إلى مزيد من التواصل والتعاون بين الطرفين لتحقيق ما فيه خير الإنسان وصالح البشرية (عبد الرحمن، ٢٠٠٦، ص ٩٥-٩٦).

والخلاصة أنه لا سبيل لمقاومة الشرور والمفاسد الخُلقية الناجمة عن تبني العولمة للعقلانية المادية، وتطبيقها في مختلف مجالاتها، إلا بتبني العولمة للعقلانية التي دعا إليها الإسلام؛ والتي يتحقق عن طريقها التزكية الخُلقية، ويكون التعامل فيها بمنطق العطاء في مقابل منطق التبادل، ونختار فيها قوة الإيمان بسلطان الخالق في مقابل قوة التعلق بقانون المادة (عبد الرحمن، ٢٠١٢، ص ٢٢٥).

ولما كان الحال كذلك فإنني أتفق في الرأي مع ما ذهب إليه طه عبد الرحمن من ضرورة مقاومة ما ينجم عن العولمة من شرور وآفات خُلقية بإخضاعها لقيم الدين الإسلاميّ الذي راعى الجانب الماديّ في حياة الإنسان ولم يهمل الجانب الروحيّ؛ الذي يتحقق به الخير للإنسان، وينصلح به حال البشرية.

ويجب أن نذكر أنفسنا دائمًا أن الفساد الأخلاقيّ، والانحلال السلوكيّ، هما أهم أركان صراعنا مع الغرب؛ بل هما جوهر ما يطمع إلى بثه فينا الإعلام الغربيّ، والصهيونيّ (النشار، ١٩٩٩، ص ٢٣٠).

ولا شك عندي في أن مقاومة الشرور الأخلاقية للعولمة، وإخضاع مجالاتها للقيم الخُلقية؛ التي دعت إليها الأديان السماوية، ولا سيما الدين الإسلاميّ الحنيف، يمكن أن يساعد المقاومة الفلسطينية؛ وذلك بتغليب قيم الحق، والعدل، والإنسانية على القيم

المادية؛ التي جعلت الغرب يناصر العدوان والظلم الذي يمارسه الاحتلال الإسرائيليّ على الشعب الفلسطينيّ، وجعلت البلاد الإسلامية عاجزة عن تقديم المساعدة للمقاومة الفلسطينية بحكم تبعيتها للغرب.

وفي نهاية هذا البحث توصلت إلى النتائج الآتية:

أولًا– المقاومة واجبة للذين ظُلِمُوا، وقد دعا الإسلام إلى مقاومة الفساد بكل أشكاله، وعدم الاستسلام للظلم والعدوان؛ بل أمرنا بالنهي عن المنكر مهما كان هذا المنكر، وجعل هذا الأمر مقرونًا بالإيمان؛ إذ قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿*كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ* وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران، آية ١١٠)، وتقوم فلسفة المقاومة في الإسلام على قيام طائفة من المسلمين بدفع الفساد الواقع على الأفراد والجماعات في المجتمع؛ حتى يتحقق الخير ويسود العدل، وترك تحديد وسائل تلك المقاومة تبعًا لمقتضيات الحال وما تستلزمه من قوة مادية وروحية؛ لذلك قال الرسول ﷺ: " من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان" (مسلم، كتاب الإيمان، باب كون النهي عن المنكر من الإيمان، رقم ٧٨).

ثانيًا– تقوم المقاومة الفلسطينية ضد الاحتلال الإسرائيليّ عند طه عبد الرحمن على عدة أسس فلسفية، منها ما هو روحيّ مثل: إيمان المقاوم الفلسطينيّ بأنه مؤتمن من الله تعالى للحفاظ على قداسة الأرض التي بارك الله فيها من تدنيس الاحتلال، كما أنه مؤتمن من الله تعالى للحفاظ على نقاء الفطرية الإنسانية لدى الفلسطينيين من إفساد الاحتلال لها، أما الأسس الفلسفية لنجاح المقاومة الماديّة ضد الاحتلال فتتمثل في عدة مبادئ: عقدية، وخُلقية، وسلوكية، أهمها من وجهة نظري مبدأ الصدق؛ والصدق مع الله، ومع النفس، ومع الغير، ويكفى فى ذلك قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا، *لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ* وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ (الأحزاب، آية ٢٣-٢٤).

ثالثًا– تقوم فلسفة مقاومة الاستبداد عند طه عبد الرحمن على اعتماد "المقاومة الروحية" بوصفها وسيلة سلمية للمقاومة، وهي تدعو إلى مجاهدة النفس وتزكية الروح، وهدفها هو التحقيق بمعنى العبودية لله تعالى؛ والتي تعني الاعتراف لله تعالى بأنه هو صاحب السلطان الحقيقيّ "المتسيد" على جميع مخلوقاته، ويورث ذلك في نفس الإنسان وازع الحياء الذي بموجبه يمنع النفس عن ظلم الآخرين أو إلحاق الأذى بهم، وهذا الأمر يدفع غيره للاقتضاء به في سلوكه؛ حتى يسود أغلب المجتمع، ويصبح أفراده قادرين على مقاومة المستبد "بإزعاجه" فيعدل من سلوكه المستبد.

ولما كان من أسباب ضعف الموقف العربيّ والإسلاميّ وعجزه عن مساندة المقاومة الفلسطينية يرجع إلى وجود الاستبداد، كان مقاومة هذا الاستبداد بالطرق السلمية حتميًا؛ لتقوية الموقف العربيّ والإسلاميّ في دعمه للمقاومة الفلسطينية.

رابعًا- تقوم فلسفة مقاومة الشرور الخُلقية الناجمة عن "العولمة" عند طه عبد الرحمن على استبعاد قيم السوق الرأسماليّ التي لا تعترف إلا بالقيم المادية فقط من مجال الاقتصاد، والتقنية، والاتصال، وهي أهم المجالات المؤثرة في "العولمة"، وإعادة بنائها من جديد على أساس من القيم الروحية والخُلقية؛ التي دعا إليها الدين الإسلاميّ: كالتعامل بالفضل، والحكمة، والمعروف؛ حتى يسود التعامل بالعدل وبالخير الناس جميعًا في كل العالم؛ إذ إنه كلما ازدادت أخلاق الإنسان رقيًا وسموًا ازدادت إنسانيته.

ولما كانت "العولمة" تؤثر في مواقف البلاد العربية والإسلامية الداعمة للمقاومة الفلسطينية؛ بحكم تبعية تلك البلاد للدول الرأسمالية الغربية، فإنها لا تملك لنفسها إلا أن تدور في فلكها؛ فكان موقفها هو الضعف والعجز من مساندة المقاومة الفلسطينية، ولا شك في أن مقاومة الشرور الخُلقية الناجمة عن "العولمة" يساعد على مساندة المقاومة الفلسطينية.

خامسًا- تتفق فلسفة المقاومة لدى طه عبد الرحمن سواء أفيما تعلق منها بمقاومة "الاحتلال"، أم كان "الاستبداد"، أو "العولمة" مع النسق الفلسفيّ والفكريّ الإصلاحيّ الذي دعا إليه؛ والذي يأخذ من العقلانية والنظر الدينيّ قاعدة ينطلق منها نحو الاجتهاد، والإصلاح، والإبداع، كما نلاحظ تأثر فلسفة المقاومة لديه بالتجربة الصوفية التي عاينها بنفسه؛ فجاءت فلسفة المقاومة لديه في معظمها روحية؛ تقوم على جهاد النفس، وتزكيتها، والرجوع بها إلى فطرتها الأولى؛ التي تدعو إلى الصلاح والإصلاح، وهو أمر شاع في كل فلسفته.

سادسًا- يمكن القول: إن فلسفة المقاومة لدى طه عبد الرحمن حاولت حل كثير من الإشكاليات التي فرض الواقع وجودها في البلاد العربية والإسلامية في الوقت الحاليّ، والتي كانت سببًا في ضعف وعجز الموقف العربيّ والإسلاميّ من مساندة المقاومة الفلسطينية؛ إذ أرى أن تلك الفلسفة يمكن أن تسهم في نشر ثقافة المقاومة في البلاد العربية والإسلامية، والتعريف بأهم الأسس الفلسفية التي تقوم عليها المقاومة الفلسطينية في دفاعها لا أقول: عن حقها في الحياة وحماية أرضها؛ بل في دفاعها عن الأرض المقدسة؛ التي باركها الله، وجعل فيها، المسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين، وإليها كان إسراء الرسول الكريم، ومنها معراجه؛ ليرى من آيات ربه الكبرى.

المصادر والمراجع موثقة بطريقة (APA)

١- ابن عديّ، يوسف، (٢٠١٢): مشروع الإبداع الفلسفيّ العربيّ "قراءة في أعمال د. طه عبد الرحمن"، ط/١، بيروت، الشبكة العربية للأبحاث والنشر.

٢- ابن عربيّ، محيي الدين، (١٩٩٩): الفتوحات المكية، ج/٤، ط/١، ضبطه وصححه أحمد شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية.
٣- ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل، (١٩٨٥): لسان العرب، القاهرة، دار المعارف.
٤- بوعلي، نبيل، (٢٠٠٧): أزمة الوجود التاريخيّ العربيّ "من فاجعة الاستعمار إلى مقاومة العولمة"، ضمن أعمال مؤتمر الجمعية الفلسفية المصرية السادس عشر بعنوان "ثقافة المقاومة"، ط/١، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية.
٥- الجابريّ، محمد عابد، (١٩٩٧): قضايا في الفكر المعاصر، ط/١، ، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية.
٦- الجابريّ، محمد عابد، (١٩٩٧): "العولمة والهوية الثقافية: عشر أطروحات"، ضمن بحوث ومناقشات الندوة الفكرية: العرب والعولمة، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية.
٧-حنفي، حسن، (٢٠٠٧): ثقافة المقاومة، ضمن أعمال مؤتمر الجمعية الفلسفية المصرية السادس عشر بعنوان "ثقافة المقاومة"، ط/١، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية.
٨- حنفي، حسن، (٢٠٠٤): حصار الزمن: الحاضر (إشكاليات)، ج/١، ط/١، القاهرة، مركز الكتاب للنشر
٩- راغب، نبيل، (٢٠٠١): أقنعة العولمة السبعة، القاهرة، دار غريب للنشر.
١٠- عبد الرحمن، طه، (٢٠١٨): ثغور المرابطة "مقارنة ائتمانية لصراعات الأمة الحالية"، المغرب، مركز مغارب للدراسات في الاجتماع الإنسانيّ.
١١- عبد الرحمن، طه، (٢٠٠٧): الحداثة والمقاومة، ط/١، لبنان، معهد المعارف الحكمية للدراسات الدينية والفلسفية.
١٢- عبد الرحمن، طه، (٢٠٠٦): الحق العربيّ في الاختلاف الفلسفيّ، ط/٢، الدار البيضاء، المركز الثقافيّ العربيّ.
١٣- عبد الرحمن، طه، (٢٠٠٦): روح الحداثة "المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية"، ط/١، الدار البيضاء، المركز الثقافيّ العربيّ.
١٤- عبد الرحمن، طه، (٢٠١٢): روح الدين "من ضيق العلمانية إلى سعة الائتمانية"، ط/٢، الدار البيضاء، المركز الثقافيّ العربيّ.
١٥- عبد الرحمن، طه، (٢٠١٢): سؤال العمل "بحث عن الأصول العملية للفكر والعلم"، ط/١، الدار البيضاء، المركز الثقافيّ العربيّ.
١٦- عبد القادر، محمد أحمد، (٢٠١٢): الفكر الإسلاميّ المعاصر"الواقع والمأمول"، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية.
١٧- علي، نبيل، (١٩٩٨): ثورة المعلومات الجوانب التقانية (التكنولوجية)، ضمن كتاب "العرب والعولمة، ط/١، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية.

١٨- الكواكبيّ، عبد الرحمن، (٢٠١١): طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، ط/١، القاهرة، دار الكتاب المصريّ.
١٩- النشار، مصطفى، (١٩٩٩): ضد العولمة، ط/١، القاهرة، دار قباء.